

# الفصل الثاني

## الرحلة الحجّية

أولاً: مفهوم الرحلة الحجّية وأنواعها.

(1) تعريف الرحلة الحجّية من الجزائر إلى الحجاز.

(2) أنواعها وأهدافها.

ثانياً: الجزائريون وفريضة الحج.

1- الرحلات الجزائرية.

2- آثار الرحلات الحجّية.

أولاً: مفهوم الرحلة الحجّية وأنواعها

### (1) تعريف الرحلة الحجّية

مفهوم الرحلة في القرآن والسنة النبوية الشريفة: لم يدع الإسلام وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان إلا وحث على فعلها، ومنها الرحلة سواء كانت للعلم أو الهجرة أو التجارة أو الحج، ومن بين أهم الرحلات الإسلامية المستقاة من القرآن الحكيم، والتي وردت في سورة قريش<sup>1</sup> مصداقاً لقوله تعالى: " لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ (1) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) " صدق الله العظيم<sup>2</sup>.

كما أقرت هذه الصورة الكريمة الحديث عن الرحلة التجارية لقريش بموقع أم القري<sup>3</sup>.

أما الزمخشري فنجد عنده الرحلة بمعنى البعير الذي يرتحله الرجل، ووردت رواية عن أحد المشركين يقال انه: شتم النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال: له رجل من المسلمين " والله لتكفن عن شتمه أو لأرحلناك بسيف هذا"، ويقصد هنا بكلمة لأرحلناك ( الضرب)<sup>4</sup>.

ويقال كذلك رحل: (رَحَلَ، رَحِيلاً، وَتَرَحَّالاً، وَرِحْلَةً) أي غادر أو مغادرة إنتقل، سار مضى، مكث هنا بعض الوقت ثم رحل وترك موضع إقامته وذهب إلى مكان آخر، رحل عن مكان أي تركه وغادره، رحل أي إنتقل إليه، والرحيل (مصدر الاسم من الترحيل ما يشد إليه الترحيل)، بوضع فتحة على الرء وسكون على الحاء من الإبل.

ويقال رَحَلَ: تَرَحَّيلاً، الشخص أي جعله يَرَحَلُ أو أخرجه من بلده وأزعجه والرحالة الكثير الترحال.

<sup>1</sup> عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الرياض، 1996م، د ط، ص 29

<sup>2</sup> سورة قريش، الآية 1،2،3،4

<sup>3</sup> عواطف محمد يوسف نواب، المرجع نفسه، ص ص 29 31

<sup>4</sup> أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، د ت، د ط، ص 29

يقال رِحْلَةٌ: جمع رَحَلٍ وَرَحَلَاتٍ، أي مغادرة أو إرتحال وإنتقال إلى مكان آخر سفر للراحة أو سعياً وراء هدف عملي<sup>1</sup>.

اصطلاحاً: هي أحد أنواع الأسفار التي تعلق بها الإنسان لذلك يقال " ولد الإنسان رحالاً"، وهذا القول ينطبق على المسلمين لتعطشهم للمعرفة وحبهم لأداء فريضة الحج وقد تفوق المغاربة في فن الرحلات عن غيرهم من المسلمين فاندفعوا إلى المشرق لأنها الطريق إلى أم القرى أولاً، وكذلك بسبب التحرشات الأوروبية لشمال القارة الإفريقية ثانياً<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> سعيد صدوق ، محمد البشير الإبراهيمي في المشرق العربي 1952-1962م، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2010/2011م، ص 13

<sup>2</sup> أبو القاسم سعد الله ، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003م، ص 149

## (2) أنواعها وأهدافها:

يعتبر فن الرحلات من أقدم الفنون الأدبية، كما يعد علماء المغاربة الأكثر اهتماماً بهذه الرحلات<sup>1</sup>.

ويمكن تحديد الرحلات في الأنواع التالية:

### أ- الرحلة فراراً بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام:

من أشهر هذه الرحلات هي هجرة المسلمون الأولى والثانية للحبشة فراراً من اضطهاد عرب قريش، ثم هجرة الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فراراً بالدين، مصداقاً لقوله تعالى: " وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا " <sup>2</sup> صدق الله العظيم.

### ب- الرحلة التجارية:

تعتبر التجارة من أكثر المجالات التي أبدع العرب فيها منذ الجاهلية وكانت رحلتهم في فصلي (الشتاء والصيف)، لكن بعد ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، اتسع نطاق تجارتهم تبعاً لانتساع دولتهم، حيث كانت رحلتهم تتم عن طريق البر و البحر وجاء في قوله تعالى: " رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا " <sup>3</sup> صدق الله العظيم.

<sup>1</sup> محمد افوخاس ، رحلات المغاربة إلى المشرق ودورها في تعزيز التواصل الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، دبي، د.ط، ص04.

<sup>2</sup> سورة النساء، الآية100.

<sup>3</sup> سورة الإسراء، الآية66.

ت - الرحلة الحجازية (الحجية):

قال تعالى: " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ " <sup>1</sup>  
صدق الله العظيم.

تعتبر الدعوة للحج منذ القدم أي في زمن النبي إبراهيم الخليل، وبعد مجيء الإسلام فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً قوله تعالى: " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ " <sup>2</sup> صدق الله العظيم.

وأصبح الحج ركن من أركان الإسلام حسب استطاعة الإنسان، وتعد فريضة الحج السبب المباشر الذي دفع بالمسلمين إلى اعتناق الرحلة لزيارة بيت الله الحرام، كما كان العلماء يأتون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي حيث مثل مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية في مختلف العصور <sup>3</sup>.

وكان حجاج مكة والمدينة المنورة بعد انتهاءهم من أداء الفريضة يجوبون الآفاق ويصفون مشاهدتهم حول الرحلة ومن بين الرحالة المسلمون ابن بطوطة، أبو راس الناصري... الخ، وقد كانت رحلاتهم تعرف بأدب الرحلات أو فن الرحلات، حيث اعترف المستشرقون بفضل الرحالة العرب على نهضتهم وأشادوا بقيمة رحلاتهم من حيث المادة والأسلوب <sup>4</sup>.

أما بالنسبة لأبي القاسم سعد الله فيرى أن الجزائريين في العهد العثماني بصورة خاصة كانت أكثر رحلاتهم إلى بلاد الحجاز عامة وبلاد الحرمين خاصة، وعلى هذا الأساس فإن: "الجزائريين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين، وإنما توجهوا إليها حجاجاً يؤدون الفريضة ويزورون الحرم الآمن لذلك كانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم وخيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم وأشواقهم إليها تنسيهم آلام

<sup>1</sup> سورة الحج، الآية 27

<sup>2</sup> سورة آل عمران، الآية 97

<sup>3</sup> عبد الواحد ذنون طه، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، دار المدار الإسلامي، د ط، لبنان، 2005م،

ص 07

<sup>4</sup> سعيد صدوق، المرجع السابق، ص 15

الطريق و عياء السفر .

و يضيف قائلاً: " أن توجه الجزائريين إلى الحجاز كالعادة نتيجة توق روجي نحو الحرمين وزيارة البقاع التي وطئتها أقدام الرسول صلوات الله عليه وسلم وصحابته: فالحجاز في نظرهم ليس بقعة جغرافية تزار للسياحة والعلم ونحو ذلك، ولكنها كانت قطعة أرض طاهرة تضم تاريخ الوحي والدعوة والأمة الإسلامية<sup>1</sup>.

### ث - الرحلة العلمية:

يعد هذا النوع من الرحلات من أهمها وأقدمها، فهي رحلة يقوم بها صاحبها لطلب العلم، ويصف فيها الحياة العلمية بصورة خاصة.

وكانت الرحلة العلمية من المغرب العربي باتجاه المشرق العربي من أهم سمات والصفات التي ميزت الاتجاه العلمي عند المغربيين منذ الفتح الإسلامي إلى غاية النصف الأول من (ق 19م)، حيث تميز العلماء المغاربة بحب فهم الدين والتفقه في أحكام الشريعة الإسلامية، وكان المشرق العربي مركزاً لنشر العلوم وتلقيها مثل، جامع الأزهر والحرمين الشريفين، ومن أهم علماء الجزائر محمد بن القنفذ القسنطيني، أبو راس الناصري... الخ، ومن الذين ذاع صيتهم في التدريس أمثال: يحيى الشاوي النائلي، والمقري درس بالحجاز والشام... الخ<sup>2</sup>.

### ج - الرحلة الاستطلاعية:

تسمى كذلك السياحية والاستكشافية هدفها التعرف على الأماكن والمعالم والشعوب، وكان بعض الحجاج لا يكتفون بالمشاهدة فحسب، بل يدونون ملاحظاتهم ويسجلون الأحداث التي يشاهدونها، ومن أهم الشخصيات التي كرست حياتها الاستطلاع والسياحة مثل: محمد بن عبد الرحيم، بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> أبو القاسم سعد الله، أدب الرحلة، من الانترنت، نشر في إنصر يوم 22 - 11 - 2010، موقع

WWW.dJazair.com

<sup>2</sup> أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط: بيبير فونتانه الشرقية، ج1، د ط، الجزائر، 1906م، ص 187

<sup>3</sup> عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 73

### ح- الرحلة الاضطرارية:

هذه الرحلة عرفت الجزائر العثمانية بسبب تراجع حركة التعليم مما بالجزائريين للهجرة للخارج وبالأخص دول المشرق العربي كالشام والحجاز، ومصر، والاستقرار بها<sup>1</sup>.

### خ- الرحلة السفرية:

وتسمى كذلك بالرحلة الدبلوماسية وتمثل نقطة تواصل الدول في إطار سياسي أو ما يسمى بتوطيد العلاقات الخارجية للدول وهي من الرحلات القليلة في التاريخ العربي ظهرت لأول مرة عند المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ميلادي<sup>2</sup>.

### ثانيا: الجزائريون وفريضة الحج

#### 1- الرحلات الجزائرية:

قبل التطرق إلى ذكر بعض الرحلات الحجّية أوجب أن نوضح كيفية الحصول على جواز السفر للبقاع المقدسة، باعتبار أن الحج ركن من أركان الإسلام التي بني عليها، ويعتبر كذلك مؤتمر اجتماعي للمسلمين، تحسن بالفريضة المحتملة ليضمن له البقاء والاستمرار<sup>3</sup>.

وسنأخذ نموذجا من رخصة الحج للبقاع المقدسة لسنة 1936م، مع الباخرة الفرنسية(مندوزة) أولاً: طلب تصريح من السيد عامل العمالة وهذا الطلب يجعل على كاغط

<sup>1</sup> لمليح السعيد، التواصل الفكري والروحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلامي (مصر والحجاز) أساسه ومظاهره من بداية ق 7 إلى أواخر ق 8م، المجتمع الثقافي في أبو ظبي، الإمارات العربية، ط 2005م، ص 121.

<sup>2</sup> قرود أمحمد، الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق العربي في ق 17/11م من خلال نماذج احمد المقري، عيسى الثعالبي، يحي الشاوي النايلي، دار الخليل العلمية، د ط، الجزائر، 2017م، ص ص 109 110

<sup>3</sup> محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق، ص 74

معلم عليه (تامبر) قيمته (4فرنكات) ويبحث إلى رئيس الحوز أي شيخ البلدة أو حاكم الحوز ورئيس الملحقة وبصحبتة مايلي:

- شهادة حسن السيرة ونسخة من دفتر الجنايات.
- شهادة من رئيس الحوز أن عائلة الحاج لا يلحق بها ضرر بسبب ذهابه.
- شهادة طبية من طبيب ملحق أو من الإدارة الصحية تاريخها على الأقل (10 أيام) قبل الذهاب مضمونها أن الحاج (ملقح من الوباء والجذري)

وعندما تكون الشهادات مجتمعة يعطى التسريح للحاج بمجرد تقديمه ورقة كراء في الباخرة، ومن الواجب على الحاج أن يضع عدد (2000 فرنكا) ويشهد له بذلك (شيك) أو رسالة قرضية والعدد المذكور يقع استرجاعه بجدة<sup>1</sup>.

### رحلة أحمد بن الشريف (مكتوبة بالفرنسية عن شخصيته) سنة 1913م:

من مواليد سنة 1878م في نواحي منطقة الجلفة من أولاد سيدي محمد أحد بطون أولاد نايل، عائلته من أعيان المنطقة المذكورة آنفا، زاول دراسته في الجزائر العاصمة، التحق بالأكاديمية العسكرية الفرنسية (يسان سير شارك) خلال أبح ع 1، والقي عليه القبض وأطلق سراحه في نهايتها، ويقال انه توفي إثر إصابته بمرض الحمى الصفراء في حدود سنة 1921م، قام احمد بن الشريف برحلته للبقاع المقدسة سنة 1913م خلدها في كتابه الذي أصدره باللغة الفرنسية، سرد لنا مجمل أطوار الرحلة ويحكي قصته بدءاً من رحلته ودخوله إلى منطقة الحجاز ثم سفره لمناطق الشام<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> البصائر، كيفية التحصل على رخصة السفر الى الحج، العدد 50، 08 جانفي 1937م، مج: 01.

<sup>2</sup> هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 286



كان محمد بن الشريف في النهار ينجز أشغاله بهدوء وفي المساء ينهمك في الكتابة فهو يحرر كتابه، ويراسل بصفة دائمة أصدقائه، وفي شهر رمضان (بداية شهر فيفري 1913م) كان يسمع إلى قصة يحكيها أخوه الأصغر (المختار) عن الحياة الدينية بالمشرق خاصة المدن المقدسة للإسلام، وكان الباشا آغا يسأله عن مكة المكرمة وحول شعيرة الحج وأبدى نيته في أداء هذا الفرض وذهب هو وابنيه لأداء مناسك الحج، قام برحلته للحج وكأنها نزهة سياحية فانفقوا على طريق الرحلة ابتداءً من إسبانيا ليزوروا اشبيلية غرناطة و قرطبة ثم جنوب فرنسا والشاطئ الأزرق بعدها يركنون من مرسيليا الباخرة المستأجرة خصيصاً للحجاج المتوجهين إلى جدة، وفي طريق العودة إلى خطط سي أحمد لجولة سياحية عبر الشرق الأوسط مروراً بتركيا، ثم العبور للإمبراطورية النمساوية والمجرية إلى سويسرا ومنها دخول فرنسا والمرور على باريس ثم مرسيليا والعودة إلى البلد، وبالطبع هذه الرحلة تتطلب تنظيمات إدارية مهمة لكن الباشا آغا راسل وكالة سياحية بالجزائر اسمها (لويين) تتولى تنظيم الرحلة، واشترط كامل الخدمات وفي الطريق طلب منهم والدهم طلب السماح من كل الأصدقاء لأداء هذا الواجب الديني في سكينه، ومع بداية مارس ذهب بن الشريف وأهله ركبا القطار إلى العاصمة، سافروا من طنجة إلى اسبانيا وقضوا بها أياماً بعدها وصلوا إلى (نيس) وأقاموا بفندق (بالاس بفرسكو) ، بعدها ركبوا من مرسيليا إلى الجزيرة العربية وبعد (4أيام) نزلوا بجدة فارتاحوا بعض الأيام ليستعيدوا قواهم، ثم توجهوا إلى المدينة المقدسة والتحقوا بالآلاف من الحجاج، كان الحجاج ينتقلون على البقال والحمير أو الإبل أو راجلين أو متراصين فوق عربات في جو من الحر، حيث كانت الظروف متعبة بسبب عدم توفر لوازم الراحة وكانوا قلة الذين يعودون لأهلهم سالمين<sup>1</sup>.

تعتبر الكعبة الكريمة جامعة لكل الأجناس المختلفة والمختلطة وكان هناك حالة من الوعي السياسي عند الناس فهناك نشاط روحي وغلبيان ثقافي عند الشباب فهم منخرطون في أطروحات (جمال الدين الأفغاني) مؤسس النهضة ذات الانبعاث الجديد لدول العالم الإسلامي، بن الشريف كان يدون كل مساء انطباعاته وأفكاره في دفتر سفره، هذه المذكرات ستسمح له<sup>2</sup>

<sup>1</sup> خير الدين أحمد، حجر الملح (حياة الكاتب محمد بن الشريف)، منشورات المركز الدوري للبحث الموحد، د ت، د ط، ص

فيما بعد بنشر كتابه: (في المدن الإسلام المقدسة)، وبعد أن أدوا أهم واجباتهم التعبديّة ركب حاجنا من جدة ليبدء العودة، يومان وصلوا إلى حيفا لزيارة القدس مع تسجيل كل الانطباعات والملاحظات عن فلسطين بعد أن صلوا صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى وفي اليوم الموالي ذهبوا بالقطار باتجاه تركيا وأقاموا بها أياماً<sup>1</sup>، بعدها مرّوا بالإمبراطورية النمساوية، وبعد أيام قليلة إنتقلوا إلى مرسيليا ومنها عبروا البحر ونزلوا بالجزائر ومنها إلى عين المعبد وعند وصولهم استقبل الباش آغا وابنيه بفرح كبير<sup>2</sup>.

### رحلة الحاج الشريف قاضي(سنة 1930م):

ولد الحاج في أكتوبر 1867م في سوق أهراس من قبيلة "الكلوتية" من عائلة توالت القضاء وتوارثته العائلة فيما بينها، تحصل على شهادة البكالوريا وبعدها تجنّس بالجنسية الفرنسية وعمره لا يتعدى الحادي والعشرين سنة<sup>3</sup>.

يعتبر من الأوائل الذين التحقوا بكلية الحربية المتعددة التقنيات شارك في ألح ع 1، وكان ضمن البعثة السياسية والعسكرية بقيادة سي قدور بن غبريط.

هذه الرحلة هي من أهله أن يكتب عن ما شاهده وكان عنوان كتابه (أرض السلام) يروي فيه زيارته لبيت الله الحرام وأركان الحج وعن العلاقات الفرنسية الحجازية في الفصل الأول تحت عنوان (الرحلة)، المتضمن الحج ومناسكه الإقامة بمكة وزيارته لينبع، أما الفصل الثاني جاء على شكل دراسة سوسولوجية لحياة البدو آنذاك ومسألة تعدد الزوجات والديانة الإسلامية واللغة العربية والشعر البدوي والعلم الفلك عند العرب، أما الفصل الثالث تكلم عن آرائه حول الصحوة الإسلامية كما انه كتب رحلتين إحداها صدرت سنة 1930م ببيروت وهي صغيرة الحجم سماها (رحلة إلى مكة)، والأخرى صدرت سنة 1927م سماها (المدينتين المقدستين) ونشرها في باريس.

<sup>1</sup> خير الدين أحمد، المرجع السابق، ص 176

<sup>2</sup> هوارى قبائلي، المرجع السابق، ص 286

<sup>3</sup> أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، دار هومة، الجزائر، دت، ص ص 45 - 46

أما (رحلة إلى مكة) فقد قسمها إلى خمس فصول هي: أصل الحج قبل الإسلام، الكعبة، الحج ومناسكه، تأثير الحج المعنوي والأخلاقي، وأخيراً الوضع الصحي في الحج<sup>1</sup>.

### رحلة العلامة الشيخ الطيب المهاجي (سنة 1930م):

هو "الطيب بن المولود بن مصطفى" المولود في 1881م، "بالقعدة" من قبيلة "أولاد علي" إحدى قبائل "بني عامر"، وهو علم من أعلام الفكر والثقافة لمدينة وهران، رفع فيها راية الإصلاح، وتصدر للفتوى والتعليم بها كما يشهد له دفاعه المستميت على الأوقاف الإسلامية الجزائرية من خلال مذكرته المشهورة المرفوعة للحكومة الفرنسية، ودفاعه على التعليم الأصلي، ويكفيه فخراً أنه ابن الأستاذ "زور إبراهيم بلقاسم"، من أوائل شهداء الثورة الجزائرية<sup>2</sup>، كما كان المفتي الرسمي لمجاهدي منطقة وهران، وافته المنية في 17 أكتوبر 1969م بوهران عن عمر يناهز 88 سنة، دفن بمقبرة "مول الدومة" بحي الصنوبر بوهران.

وقد رحل الشيخ إلى الحرمين الشريفين في المرة الأولى سنة 1932م، والتي خلدها في رحلته الشهيرة "أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر"، روى لنا في أسلوب شيق أطوار هذه الرحلة، وقد أشار المؤلف في مقدمته الطبعة إلى أسباب تأخر طبع الكتاب الذي جاء كما قال "لا يتفق ومصلحة الاستعمار... ولا يوافق هواه وأغراضه الدينية..."، "إذ هو عند كل مناسبة ينتقد تصرفات الاستعمار المناهية للعدالة ويعيب قوانينه المتعسفة الشاذة..."، ثم تطرق إلى نشأته ونسبه وأطوار تعليمه وشيوخه، ثم ذكر رحلته لطلب العلم ومختلف إجازاته العلمية، كما لم ينسى في البداية جهود المملكة العربية السعودية في السهر على خدمة الحاج وتوفير الأمن<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> أحمد مريوش، المرجع السابق، ص 46

<sup>2</sup> الهواري ملاح، الآثار العلمية للشيخ الطيب المهاجي الجزائري، مكتبة الرثاء للطباعة والنشر، الجزائر، 2004م، ص 16

<sup>3</sup> الطيب المهاجي، المصدر السابق، ص 03

رحلة بني ميزاب (سنة 1947م):

لقد حاولت الإدارة الاستعمارية الفرنسية التعامل بشكل متميز مع بني ميزاب مدركة منذ البداية الخصوصيات لهذه الفئة المتميزة حيث كانت تبحث عن وسائل وإستراتيجيات لتفكيك المجتمع الجزائري.

وكانت تأمل أن تحول بعض الفئات من المجتمع الجزائري التي تحمل بعض الخصوصيات إلى فئات خاضعة لها، لكن من دون جدوى وحاولت الكرة مع بني ميزاب لكنها جنت نفس النتائج المخيبة للآمال، فهذه السياسة الفرنسية نجحت في سوريا ولبنان واستطاعت بذلك ضرب الطوائف بعضها ببعض<sup>1</sup>.

ولقد ارتأى الحكام الفرنسيون مراعاة خصوصيات بني ميزاب في مناطق انتشارهم التاريخية الشيكة، وذلك بعد اتفاق ماي 1853م\* بين أعيان بني ميزاب وبين الجنرال "روندون".

وامتاز بنو ميزاب بنشاطهم التجاري الكبير وحلهم وترحالهم المستمر دون كلل أو ملل بين مناطق الجزائر حتى شكلوا فئات نشطة معروفة بالميزانية في كل المدن الجزائرية تقريبا، هذه الحركة الدعوية أقلقّت راحة الحكومة الاستعمارية الفرنسية التي رأت فيها ما يمكن أن يهدد مصالحها<sup>2</sup>، ولذلك اصدر الحاكم العام (تيرمان) أوامر بوجود مراقبة بني ميزاب سنة 1883م.

ويبدو أن هذه الرحلة في النقل التي كانت من سمات بني ميزاب سهلت عليهم الرحلة في أداء مناسك الحج بفعل هذا التحرك، المتواصل الذي كان يقودهم في رحلات مستمرة إلى خارج الحدود بدءا من ليبيا وتونس وصولا إلى الحجاج، مستغلين الاستثناء الذي حظوا به وفق اتفاق

<sup>1</sup> شارل روبير أجرون، المسلمون الجزائريون وفرنسا (1871-1919م)، دار الرائد للكتاب، ج1، د ط، الجزائر، 2007م، ص 11

\* بموجبه يتم السماح بمرور آمن للقوات الفرنسية وعدم التعامل مع أعداء الإمبراطور الفرنسي ودفع الإيتاوات، مقابل تعهد فرنسي بعدم المساس بنظم الإدارة المحلية في المناطق الميزانية، نقلا عن هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 396

<sup>2</sup> هواري قبائلي، المرجع نفسه، ص 396

ماي 1853م، وكذلك لمعرفتهم بطرق الصحراء واتخاذهم لتلك المسالك المتعرجة لتفادي رقابة السلطات الفرنسية.

كما ذكرت الباحثة الفرنسية (سيلفيا شيوفلو) قصة المدعو ناصر من بني ميزاب بحيث ذهب مع أصدقائه وهم إحدى عشر شخص لأداء مناسك الحج في بداية القرن 19م، فوجد أمامه من أبناء طائفته مجموعة من (40رجلا) يأكلون ويشربون معا و في سنة 1947م تقدم مجموعة من بني ميزاب للمشاركة ففي الحج ضمن الوفد الرسمي و هم التالية أسماهم: يوسف سليمان بن الحاج داوود، حاج عيسى إبراهيم بن الحاج محمد، بعدها تقرر قبول اثنين منهم كممثلين لهذه الطائفة.

ويبدو أن هذا الاهتمام الكبير المنقطع النظير للمجتمع الميزابي بأداء فريضة الحج كان سمته جميع الطوائف المجتمع الميزابي، حيث حيلت تلك البيئة المحافظة و المتنوعة بتقديس الرحلة الحجية<sup>1</sup>.

وقد كان لظهور الاستعمار الحديث دورا بارزا في حركية السكان من المركز إلى الأطراف بغية استكشاف واستغلال واستيطان الأراضي المحتلة والمسلوبة، وكرد فعل على ذلك حدثت هجرات معاكسة من شعوب وقبائل البلدان المستعمرة رفضا للاستبداد والعبودية.

لكن لا يمكننا ربط الهجرات بشكل عام بالخوف والبحث عن الأمن فقط، فقد تكون هذه الهجرات لأسباب روحية دينية، كرحلة الحج مثلا، أو طلب العلم بعدما أضحت البقاع المقدسة تهوى لها قلوب جميع المسلمين.

ففي سنة 1936م هناك مجموعة من الحجاج بعد أدائهم لفريضة الحج قرروا البقاء وهم 1293 حاج، وهناك أسماء جزائرية بقت في الحجاز بعد أدائها فريضة الحج حسب تقرير فرنسي.

- عائلة شويحة الحاج قويدر من الجلفة (3 أفراد).

- عائلة حوحو محمد بسكرة ( 3 أفراد).

<sup>1</sup> هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 254.

- عائلة مسعودي صالح بسكرة (5 أفراد).
- عائلة بشيشي مبروكة بسكرة (3 أفراد)<sup>1</sup>.
- عائلة مود علي الواد (4 أفراد).
- عائلة ساكر محمود بسكرة (11 فرد).
- عائلة علوي زينب بسكرة ( فرد واحد).
- عائلة شكالي مصطفى من الجلفة (6 أفراد).

## 2-آثار الرحلات الحجية:

أدت الرحلات الحجية من الجزائر إلى الشرق إلى انتقال الأفكار والمعارف قبل انتقال الأجسام، كما ساهمت في تلاقح الأفكار وثقافات الشعوب، مما ترتب على ذلك تبلور نتاج حضاري وإنساني كبير.

ومن حسن حظنا أن الكثير من المثقفين والعلماء دونوا شهاداتهم ومشاهداتهم في رحلاتهم الحجازية مما شكل تراثاً مميزاً، يزخر بمعلومات تاريخية ومعرفية في أسلوب أدبي شيق لا يمكن الاستغناء عنه، ومن الأمور اللافتة للانتباه، إن المغاربة برعوا وامتازوا عن أشقائهم المشاركة في أدب الرحلات<sup>2</sup>.

وما يهمنا في بحثنا هذا محاولة تقصي الرحلة الجزائرية في العصور الحديثة، ومن الملاحظ أن أدب هذه الرحلات ازدهر أكثر خلال القرن 18م وذلك بسبب:

- استقرار الوضع السياسي في الإيالة العثمانية مع حركة التنقل دون الخوف من مخاطر الطريق.
- ازدهار الحياة العلمية والأدبية ونشاط حركة التأليف.
- تعلق الجزائريون الدائم ببلاد المشرق والحجاز والتشوق إلى زيارة البقاع المقدسة<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 278

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 279

<sup>3</sup> أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ج4، ط1، بيروت، 1996م، ص 177

هذا ما ساهم في ظهور رحلات حجازية، ألفها علماء ومؤرخين وأدباء جزائريين، منها ما وصل إلينا وهو القليل، وهناك ما لم يصلنا والبعض وصل مبتوراً أو متجزءاً، وآخر وصل كاملاً.

ولعل أهم رحلة جزائرية في العصور الحديثة اعتنت بوصف الرحلة الحجازية وصفاً دقيقاً، هي رحلة الشيخ حسين الورتلاني الموسومة " بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " والتي طبعت دون تحقيق، فقد روى فيها بوصف دقيق جميع مراحل رحلته بوصف جغرافي وسرد تاريخي، ووصف الطريق الذي يسلكه الحجاج، وذكر أحوال ركبان الحجاج وخاصة الركب الجزائري، كما تطرق لهيبة الركب الجزائري قائلاً: " فلا تجد سارقاً يدور بنا ولا قاطع طريق ليلاً ونهاراً خوفاً من الركب لكثرتهم وكثرة سلاحه لا سيما الركب الجزائري، نعم الركب المصري كان يخاف منا"<sup>1</sup>.

أما رحلة " محمد بن احمد بن عبد القادر الناصري المعسكري " المعروف "بأبي راس" فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، وكان في طول رحلته يسهب في ذكر العلماء والأولياء، وطلبه للعلم في كل محلة دخلها، وبذلك غلب على رحلته الطابع العلمي الخالص<sup>2</sup>.

أما الرحلة الحجازية في القرن 18م فأبرز من ألفوا في هذا، الأمير عبد القادر بن محي الدين في مذكراته التي وصف فيها رحلته إلى الحجاز وتجوله في الشام وبغداد، حيث زار هناك مقام عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة القادرية، التي يعد الأمير من أتباعها، وتشكل هذه المذكرات صورة المشرق العربي من خلال هذه الرحلات خاصة في هذه الفترة من تاريخ الجزائر في العهد العثماني<sup>3</sup>.

ومع دخول الاحتلال الفرنسي قلب الأمور وأضر كثيراً بالحياة الثقافية، حيث لم تشهد الجزائر لعقود عدة أي تأليف يكاد يذكر وذلك في شتى العلوم، بعدما تم القضاء على التعليم

<sup>1</sup> حسين الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار مكتبة الصوفية، القاهرة، د ت، ص 394

<sup>2</sup> الناصري أبي راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، الجزائر، 1990

<sup>3</sup> الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ص 110

التقليدي، وتم التضييق على العلماء وحلقات العلم، مما أثر على الإنتاج العلمي، ولم تسجل لنا المصادر أي تأليف في الرحلة الحجازية خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،<sup>1</sup> لتأثير الجزائريين بسياسة المنع والتضييق التي مارستها فرنسا في حق الجزائريين وحرية ممارسة شعائرهم الدينية، ولم ينل شرف الذهاب إلى الحج في سنوات العادية إلا بعض المحضوضين من رجال الدين.

إلا أن أهم الرحلات الحجازية في الفترة الاستعمارية رحلة ( ابن عبد الله الحاج العربي) الموسومة ب"الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز" التي لا نعلم عنها الشئ الكثير إلا الاسم للأسف الشديد، ورحلة العربي بن عبد القادر بن علي المشرقي ألمعسكري التلمساني الفاسي والتي سماها "الرحلة العريضة لأداء الفريضة"<sup>2</sup>.

ورحلة العلامة الشيخ الطيب المهاجي وهو الطيب بن المولود بن مصطفى، والتي خلدها في رحلته الشهيرة "أنفس الذخائر وأطيب المآثر في أهم ما اتفق لي في الماضي والحاضر"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 283

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 284

<sup>3</sup> الهواري ملاح، المرجع السابق، ص 16



نستخلص في الأخير بان الرحلات الحجّية الحجازية الجزائرية ومنذ الدخول الفرنسي لم يترك للجزائريين أي خيار خاصة بعد سن قوانين تلزمهم على ترك ممارسة حياتهم الدينية والروحية، مما أجبر الجزائريين على الهجرة قسراً أو الذهاب لأداء مناسك الحج والبقاء هناك إلى حين ومنهم من يعود.

ساهم هذا التضييق والخروق على فقدان كبير في الموروث الثقافي لتلك الفترة المظلمة من تاريخ الجزائر التي لا نعلم عنها إلا الشيء القليل.